

المجلس الثامن

في مقام التلقي لعهد الاستخلاف الإسرائيلي



الدرس الثاني

في عجائب معجزات الله فيهم وخرائب منكراتهم

١ - كلمات الابتلاء:

قَالَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّرُونَ
أُمْنَاءَكُمْ وَرِيسَتِيُونَ بِسَاءَ كُفْرٍ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٥﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ
فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ١٦﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ١٧﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨﴾
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ إِلَيْكُمْ
ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِإِغْثَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ
بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى
اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُمْ الضَّعِيفَةَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٢١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ٢٢﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٢٣﴾

٢ - البيان العام:

فصل القرآن قصة بني إسرائيل - وهي أوسع القصص القرآني على الإطلاق -
على خمس مراحل. المرحلة الأولى: هي في قصة يوسف إلى نهايتها برحيل النبي
يعقوب عليه السلام مع بنيه وأهله أجمعين من الشام إلى مصر. المرحلة الثانية: في تغير
أحوال بني إسرائيل بمصر - بعد تغير الظروف السياسية - من عزة إلى ذلة وذلك
باستعباد المصريين لهم! المرحلة الثالثة: ظهور النبي موسى عليه السلام فيهم، وبداية تجمع
بني إسرائيل للعودة بهم إلى الأرض المقدسة، وما كان من صراعه مع فرعون
وجنوده. المرحلة الرابعة: هي مرحلة التيه في الصحراء. والخامسة: هي مرحلة

التمكين ودخول بيت المقدس. وكل هذه المراحل مفصلة في القرآن ما بين سور شتى. كل سورة تضمنت منها ما يناسب قضيتها، كما في سور يوسف وطه والشعراء والقصص، وغيرها. فكل مرحلة فصلت هنا أو هناك. وتلك كلها سور مكية، كان الغرض من القصص فيها دعوة الناس جميعاً ببيان أيام الله في الأمم التي خلت. لكنه ههنا في سورة البقرة - وهي سورة مدنية - التقط من أغلب تلك المراحل مشاهد خاصة، وحوادث متميزة يُذكرُ بها يهود المدينة خاصة، المعاصرين لمحمد ﷺ وكذا من خلفهم من بني إسرائيل عامة إلى يومنا هذا؛ منادياً إياهم بخطاب مباشر: «يا بني إسرائيل! يا بني إسرائيل!» اذكروا كذا وكذا، وإذ كان منكم كذا وكذا..»، مشيراً إلى ما تضمنته تلك الحوادث من اللطف الإلهي بهم والإنعام الرحماني عليهم؛ عساهم يتذكرون ولعلمهم يهتدون، ويدخلون في دين الإسلام مع عموم المسلمين! ولذلك جاءت أغلب تلك الإشارات القصصية مبدوءة بأداة «إذ» الدالة على التذكير بالظرف الزمني الماضي، مما يعرفونه جيداً كما يعرفون أبناءهم! ويقرؤونه في كتبهم وقصص أنبيائهم وأجدادهم. والقرآن طبعاً - وهو كتاب الله للناس كافة - لا يغفل أن يدبج كل حدث من تلك الحوادث بسنن ربانية وحكم إلهية، من سنن الهدى المنهاجي وحكمه؛ إذ هو في الأصل هدى لهذه الأمة، وتزكية لها وتنمية من البذرة إلى الشجرة.

فبعد المواعظ الربانية البليغة التي خاطب بها الرحمن بني إسرائيل؛ مذكراً إياهم بنعمته تعالى وتفضيله إياهم على العالمين زمن استخلافهم - كما فصلناه بالمجلس السابق - جعل ههنا يُذكرُهم بوقائع معينة من تاريخهم، وقائع كان له تعالى فيها من الفضل عليهم واللطف؛ ما يستوجب الشكر والتوبة إلى دين الله الحق لو كانوا يعقلون! فذكرهم تعالى بما عانوه من سوء الخسف والإذلال على يد فرعون وملكه بمصر، وما كان من تجلّي رحمة الله عليهم ببعثة موسى ﷺ الذي أنقذهم بفضل الله من ذلك العذاب الشديد، الذي طال زمناً وأجياًلاً! قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٥٠﴾ فقد عرض القرآن ههنا صورة موجزة لأشد فترات الهوان والإذلال الذي نالهم من الفراعنة بمصر، وتلك هي مرحلة الابتلاء

بمذابح « فرعون موسى » ومظالمه، أي فرعون المعلوم في القرآن صاحب القضية الكبرى في دعوة موسى عليه السلام. وقد اختلف المفسرون في اسمه الشخصي، ولا عبرة بما سكنت القرآن عن تسميته، وإنما العبرة بفرعونيته الحاكمة!

لقد ذكر القرآن بني إسرائيل بتلك الأيام الكالحة حيث كان الطغاة من ملأ مصر آنذا يسومونهم سوء العذاب، بمعنى يذيقونهم أشد العذاب، وذلك بتذبيح أطفالهم الذكور واسترقاق إناثهم للخدمة والمتعة وإنها لجرائم ومصائب ترتعد من هولها القلوب! وذلك أن الطاغية فرعون رأى في منامه أن نازًا خرجت من بيت المقدس فانطلقت عادية حتى دخلت بيوت القبط إلا بيوت بني إسرائيل! فغيرت له بأن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل! فعند ذلك أمر الطاغية الملعون بقتل كل ذكر يولد في بني إسرائيل، وأن تترك البنات للخدمة، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها! فعاش بنو إسرائيل بهذا الوضع أسوأ أيامهم وأشدّها بلاء! ولذلك قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وأي بلاء - في الدنيا - أشد على الإنسان من قتل ولده وهتك عرضه؟! ولكن الله تعالى كما ابتلاهم بهذا الشر الرهيب، لحكمة ستجلى معالمها فيما يأتي بحول الله - ابتلاهم بعده بخير، وهو بعثة موسى عليه السلام وإنقاذهم من بين أيدي فرعون وجنوده! وذلك عساهم يعرفون معنى أن يكون الإنسان حرًا! وعسى يعرفون شيئًا من عظمة حقوق الله عليهم، وما ينبغي له تعالى من الحمد والشكر! وبنو إسرائيل - بما ركب الله في طبيعتهم من التمرد والعناد - قوم لا يعرفون معنى الحرية إلا بذوقهم لذلة التعبيد! ولذلك لما ضلوا عن توحيد الله بعد النبي يوسف عليه السلام سلط الله عليهم المصريين يسومونهم سوء العذاب ثم يذكّرهم الحق تعالى بمشهد ذلك الإنجاء العجيب، وكيف فرق الله بهم البحر فأنجاهم، وأغرق فرعون وجنوده وهم ينظرون ويتفرجون! ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ نَظُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ فقد أمر الله تعالى نبيه موسى بضرب البحر بعصاه، فلما ضربه انفلق فصار كل شئ منه كالجيل العظيم! واستوى قاعه طريقًا جافة معبدة؛ ليعبر بها بنو إسرائيل آمنين مطمئنين! وقد كان ذلك مشهدًا حرجيًا حين كان بنو إسرائيل مطاردين من قتل فرعون وجنوده، فلما وُجّه بنو إسرائيل بالبحر، التفتوا فرأوا جيش العدو قد أدركهم! فانهارت قواهم وأيقنوا بالهلاك!

وهو ما فضله القرآن في قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا قَرَرْنَا الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنَذْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦١﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٢﴾ (الشعراء: ٦١ - ٦٣) وعبر أصحاب موسى البحر بهذا الإكرام الإلهي العجيب والإعجاز الرباني العظيم! ولشدة غيظه الجهول تجرأ فرعون بعبور البحر كما عبرت بنو إسرائيل! فلما توشط هو وجنوده عمق الطريق أعاد الله البحر إلى وضعه الطبيعي، فالتظمت أمواجه العالية بقوة، مغرقة الطاغية وجنوده أجمعين! وهناك على بر الأمان من الضفة الأخرى للبحر بنو إسرائيل يتفرجون على هذا المشهد الرهيب العجيب! فأى إنعام هذا وأي إكرام لقوم مستضعفين، وقفوا ينظرون إلى من سامهم شر الهوان والإدلال وهو يتخبط في الموت غرقاً؟

ثم يذكّرهم بفضيحة العجل! حيث ارتكسوا من عقيدة التوحيد التي بها نجاهم الله من فرعون إلى عقيدة الشرك في صورة وثنية بشعة! فاتخذوا صنماً على هيئة عجول، صنعوه من نحاسهم، فجعلوا يعبدونه من دون الله رب العالمين! وقد كان ذلك خلال غياب موسى عن قومه مدة أربعين يوماً لموعده ربه. وكان المتوقع في مثل هذه الحال أن تفزل بهم صيحة أو صاعقة تثيرهم وتقطع دابرهم وتسلبهم إلى الأبد، كما وقع لأئم غيرهم! ولكن الله كان أرحم بهم فعفا عنهم لعلمهم يكونون من الشاكرين لأنعم الله التي لا تفتأ تندفق عليهم! ولما رجع إليهم موسى حرّق الصنم ونسف رماده في البحر نسفاً ثم بشرهم بما تلقى عن ربه من نعمة كبرى: التوراة، نعم التوراة فهي نعمة الهدى والفرقان! يقتدي بها بنو إسرائيل في أمور معاشهم ومعادهم، وترشدتهم إلى ما يجوز وما لا يجوز في عبادة الله والسير في سبيل نيل رضاه. ففيها الهدى والفرقان الفاصل بين الحق والباطل، مما لو حافظوا عليه ما ضلوا ولو بعد وفاة موسى ~~الطاهر~~! وفي تلك الألواح جعل موسى يتلو حكم الله على الذين عبدوا العجل من دون الله، فأخبرهم بأن كفارته القتل! هكذا كانت شريعتهم. فمن استجاب فهي توبته وغفرانه! إنه حكم غليظ نعم؛ ولكن الجريمة أغلظ! فهذا العبد الذي أخرجته الله قبل قليل من بين فكي الوحش فرعون يخالف الآن إلى الكفر بالله الواحد ويتخذ من دونه صنماً؟ ولا أظلم ولا أفظع في كبائر الخطايا عند الله من الشرك! ولذلك عبّر القرآن في سياق التوبة بقوله تعالى على لسان موسى:

﴿ قَتَلُوا نَارِيَّ بَارِكُمْ ... ﴾ (١) والبارئ: هو الخالق الشيء على غير مثال سابق. وهو ما عبرنا عنه من قبل بحق الخالق، الذي به استحق الرب تعالى عبادته إخلاصاً له وتوحيداً. وخيانة هذا الحق هي أعظم خيانة وقعت فيها البشرية على الإطلاق. ومن رحمته تعالى أن جعل ذلك كفارة لكل مقتول ومغفرة لذنبه وتوبة شاملة له. وقد قال بعض المفسرين: إنه لهم شهادة (٢) وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي ليقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوه حداً من الله وكفارة. وإنما هم إخوانهم وآباؤهم وأبنائهم، فكان ذلك كأنما يقتلون أنفسهم، فهو حد كما يشق على المقتول يشق على القاتل أيضاً.

ويذكرهم مرة أخرى بفضيحة أخرى، وهي طلبهم من موسى أن يريهم الله جهرة أي عياناً من غير حجاب. وجعلهم ذلك شرطاً لإيمانهم! وهذا منتهى الغواية والضلال. كان ذلك عندما سار موسى إلى ربه بسبعين رجلاً من خيار قومه لميقات ربه، اتخذهم نقيباً عن بني إسرائيل للاعتذار إلى الله وإعلان التوبة إليه تعالى، فبدل أن يتدلوا بين يديه تعالى ويستغفروه باكين خلف موسى وهو يتلقى كلام الله؛ أبوا إلا أن يزدادوا إثماً! فأصابتهم صاعقة قتلتهم جميعاً إلا موسى! فجعل موسى يتوسل إلى ربه ويجأ إليه بالدعاء كي يعفو عنهم فاستجاب له وأحياهم الله بعد مماتهم! بل زادهم نعماً أخرى هم وقومهم؛ بأن أرسل إليهم الغمام مسخراً فوق رؤوسهم يستظلون به من حر الشمس في الصحراء، وأنزل عليهم طعام المن كشهد العسل، يجدونه معلقاً على الأشجار فيتغذون به، وأرسل بين أيديهم طائر السلوى أسراباً كثيرة، وهو يشبه طائر السمائي، وقيل هو نفسه (٣) من فصيلة الدجاجيات يسمن ويتكاثر، يذبحون منه فيطبخون ويشوون عيشاً رغداً، ورزقاً طيباً نعمة من الله وفضلاً! ثم هم مع ذلك كله يكفرون ولا يشكرون! ذلك بعض ظلمهم وإنما كان على أنفسهم!

٣ - الهدى المنهاجي:

وهو في ست رسائل نعرضها كما يلي:

الرسالة الأولى: في أن الإذلال يفسد الطبع البشري ويدمر الشخصية الفطرية

(١) روي ذلك عن عبد الرحمن بن زيد كما هو عند الطبري وابن كثير.
(٢) ن. الروايات في ذلك عند الطبري.

للإنسان! ولذلك كان الرسول ﷺ يستعيد منه بالله، كما ثبت في دعائه: «اللهم إني أعوذ من الفقر والقلة والذلة وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم!» (١) وما يبيحُ أمة الذل والهوان إلا فسدت طباعها وانحلت أخلاقها، وشق على المصلحين أمر إصلاحها! ولذلك وردت النصائح النبوية للمؤمن بعدم تعريض نفسه لمواقف الذل! فمن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه: يتعرض للبلاء لما لا يطيق!» (٢) وحُرِّمَت المسألة على المسلم - إلا لضرورة - بسبب ما يصيب صاحبها من الذل والصغار! ومن الجهل الشنيع إذلال بعض الآباء لأبنائهم بالشتم والسباب والتنقيص والسخرية؛ مما يحطم معنويات الطفولة ويقهرها! فيجد الطفل نفسه عاجزاً عن كل شيء، حتى إنه يكبر فلا تكبر معه شخصيته! بل يبقى على حال العجز والشعور بالنقص أبداً!

الرسالة الثانية: في أن المؤمن - فرداً أو جماعة - إذا بلغ من الاستقامة والإخلاص لله مبلغ الرضا تلقاه ربه بالقبول وتولاه؛ فجعله أداة من قَدَره ﷻ! ولذلك قال في حق بني إسرائيل لما آمنوا بموسى عليه السلام وأزروه في فتنه فرعون اللعين: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ...﴾ (٣) والأصل في التعبير (فرقنا لكم)؛ لأنه إنما فرقه لإنقاذهم من الطاغية فرعون وجنوده، وأما الأداة فكانت عصا موسى والفاعل في ذلك كله إنما هو قدرة الله تعالى وإرادته! ولكنه هنا جعل نفس بني إسرائيل أداة فرق البحر؛ وذلك لما كانت نجاتهم هي الغاية وكانوا في تلك اللحظة على مقام الرضا من الله والإخلاص له جعلهم أداة قدره وأمره العجيب! وكأن السر هو فيهم لا في العصا! وكذلك كل من تولاه الله وجعله من جنده، فتح له وبه ما ينصر به دينه ويرفع رايته!

الرسالة الثالثة: في أن الشريعة رحمة للمؤمنين وأن حدودها كفارات لأصحابها، يظهرهم الله بها ويغفر ذنوبهم! فعندما أصاب ماعز بن مالك حداً من حدود الله، وجاء إلى رسول الله ﷺ معترفاً بذنبه أمر النبي ﷺ بحده، ثم قال في حقه: «استغفروا لماعز بن مالك! لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم!» (٤) ولما كان خالد

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه مسلم.

ابن الوليد عليه السلام يحدد المرأة الغامدية التي زنت وهي محصنة، أصابه شيء من ذمها فسيها، فقال له النبي ﷺ: «مهلاً يا خالدا لا تسبها! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له!» ^(١) وفي رواية: (لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم) وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله؟ ^(٢)

وهذا إنما يكون حيث تُقام الحدود، وتُحفظ محارم الله، وتُرعى حقوقه وحقوق عباده، وتُصان الأنفس والأعراض والأرزاق، ويعتصم الناس بالشرعية تربية وتركياً، ثم يكون سلطانهم على ذلك. وإلا فمقترب الحد إنما عليه التوبة؛ بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات، وكثرة الاستغفار والصدقة والقيام والصيام.

الرسالة الرابعة: في أنه باتباع الكتاب يجد المؤمن الهدى الكامل والفرقان التام. وقد تبين من مقدمة السورة أن هذا القرآن هو الكتاب! الكتاب الذي لا كتاب بعده في بيان الهدى. فمن اعتصم به سائرنا على أثر رسول الله ﷺ، نجا من كل سوء في دنياه وأخراه.

الرسالة الخامسة: في أن المؤمنين الصالحين من هذه الأمة متصلون عبر السند الإيماني بصالحى الأمم السابقة، فالمسلمون أولى بهم من نسلهم المتعاقب عنهم، ممن خرج عن منهاجهم الحق وغيره وبذل! والمسلمون أولى بحواربي عيسى ﷺ من نصارى هذا العصر وما قبله، ممن خلطوا دينهم بالشرك الغليظ! والمسلمون أولى من يهود هذا العصر وما قبله، وسائر أنبياء بني إسرائيل جميعاً! لا نقبل في إيذاء أحد منهم سوءاً ولا عدلاً! فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله ﷻ فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم!» فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه! ^(٣) وعن أبي قتادة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء؟ فقال: «يُكْفَرُ الشَّنَّةُ الماضية» ^(٤)).

ومن الطرائف المحمودة أن جماعة من المسلمين في بلاد الغرب رفعت دعوى

(٢٠١) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

قضائية ضد فلم سينمائي يسخر بالحواريين! وذلك أن احترام الحواريين جزء من وصايا الإسلام، والسخرية بهم طعن فيه!

الرسالة السادسة: في أن جيل الصحابة هم أفضل جيل مؤمن عرفه التاريخ على الإطلاق! فقد آمنوا بمحمد رسول الله ﷺ بغير قيد ولا شرط، لقد أيّدوه وعزّروه ووقروه ونصروه، وأحبوه محبة جعلتهم يفضّلونه على أنفسهم وأبنائهم وآبائهم؛ حتى تعجّب منهم غيرهم! ما أمرهم النبي ﷺ بشيء أو نهاهم إلا قالوا: «سمعنا وأطعنا» ولا أسأوا الأدب مع الله ورسوله في شيء! أودوا في الله، وهاجروا إليه، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيله! ولا كان منهم في ذلك شيء من المن والفخار! بل أضأوا ليلهم بنور البكاء بين يدي الرحمن مستغفرين! فاستحقوا ما وصفهم الله به في القرآن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. كما استحقوا معية محمد رسول الله ﷺ، فكانت تلك شهادة لهم من الله صريحة، كما سبق بيانه بالمجلس السابق من قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ثُمَّ ثَبَّتْنَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وبهذا وذاك كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله! ولقد تواترت شهادة الله لهم في غير ما موطن من كتاب الله، فأكرم به من جيل وأنعم!

فمن كان مقتدياً بأحد بعد رسول الله ﷺ فبهؤلاء الرجال!

٤ - مسلك التخلق:

ومسلك التخلق ههنا هو في العمل على اكتساب مقام الرضا بمعنى كيف يكون العبد عند ربه مرضياً؟

أولاً: لا بد من ملازمة التدبّر لمواقع رضا الله عن رسله وأنبيائه وعباده الصالحين في القرآن، فتمتد شروطاً وصفات وأخلاقاً، كما في قوله تعالى بعد عرض أحوال رضى لعدد من أنبيائه المصطفين الأخيار، وتقرير استجابته تعالى لأدعيتهم: ﴿كَانُوا بِرُسُلِهِمْ فِي الْخَيْبَاتِ وَيَدْعُونَا رَعِيًّا وَذَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا هو الهدى!

ثانيًا: لا بد من الاجتهاد في التأسي بخير قدوة: سيدنا محمد ﷺ فهو أرضى الخلق عند الله.

ثالثًا: لا بد من الاشتغال بتبع سيرة الصحابة ومصاحبتهم في حياتهم! فهم رجال لهم فضل الضحية وبركتها، وهم بهذا غير عاديين نعم، لكنهم من جهة أخرى رجال عاديون، رجال من بني آدم محكومون بضرورات العيش كما نحن محكومون، ومرتبون بحاجات الأرض كما نحن مرتبطون، لكنهم - رغم ذلك - ارتقوا إلى مصاف الصديقين والشهداء؛ بما لم يستطعه إلا قليل من العالمين! فبالرضا الرباني بشهادة الله لهم صراحة في الكتاب المبين! قال جل ثناؤه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ أُولُو الْأَرْحَامِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فلو نظرت إلى كليات خصالهم لوجدتها في خمسة، أولها: سرعة الاستجابة لله ولرسوله كلما سمعوا داعي الله! ثانيها: الصدق الكامل في الأفعال والأقوال، وذلك أعلى منازل الإخلاص، وبه كان أبو بكر رضي الله عنه صديقًا ثالثها: سرعة التوبة ومداومة الاستغفار! رابعها: التذلل بين يدي الله بتلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار! خامسها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بواجب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله. فمن تحقق بهذه الصفات رجا أن يدخله الله تعالى في مقام رضاه عن المهاجرين والأنصار من باب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى آخر الآية. جعلني الله وإياكم منهم بفضله وكرمه ومحض قنوه وإحسانه! آمين!